

محاسبة النفس

- يحتاج الإنسان كثيراً إلى جلسة مع نفسه - يجلس إلى نفسه في هدوء، لكي يفحصها ويفتش دواخلها، و يراقب تصرفاتها ويحاسبها، حتى يكون في يقظة مستمرة.
- وهذه الرقابة الذاتية وملاحظة النفس لازمة لكل انسان، مهما علا في حياته الروحية، ومهما ارتفع في منصبه.
- ولهذا فإن الشيطان يحاول بكل قوة أن يمنع كل انسان من الجلوس إلى نفسه. ما أسهل أن يغرقه في مشغوليات عديدة جداً تستغرق كل وقته، وتستحوذ على كل مشاعره، فلا يجد فراغاً يجلس فيه إلى نفسه!
- وإن كان إنساناً خدوماً، يمكن أن يشغله بالخدمة ومتطلباتها، حتى يجعل الخدمة تشغله، بحيث لا يهدأ ليفكر في أخطائه في خدمته!
- وهكذا كثيراً ما يعيش غالبية الناس في دوامة دائمة، خارج أنفسهم!

أنت محتاج أن تجلس إلى ذاتك، لأسباب كثيرة:

- منها أن تعرف أخطاءك، سواء كانت أخطاء اللسان، أو أخطاء الفكر أو الحواس أو مشاعر القلب، أو أخطاء الجسد. وبالجملة لتعرف أخطاءك ضد وصايا الله، وضد الناس، وضد نفسك، لتصلح كل هذه
- وأيضاً لتعرف الخطايا التي تتسمى بأسماء فضائل، وربما تفتخر بها! وكما تحاسب نفسك على السلبيات التي تقع فيها، حاسبها أيضاً على ما ينقصها من الفضائل.
- وكذلك من جهة توقف النمو الروحي، لأنه من المفروض أن تنمو روحياً باستمرار...
- وكل إنسان عليه أن يضع أمامه عبارة الحكيم الذي قال: "احكم يا أخى على نفسك، قبل أن يحكم الناس عليك"

ولكن كيف تكون محاسبة النفس بطريقة مثالية؟

- يحاسب نفسه بكل صراحة، وبغير مجاملة للذات: وهنا يحاول الشيطان أن يمنعه بإحدى طريقتين: إما أن يقول له "لا تبالغ في حكمك على ذاتك، لئلا تقع في (عقدة الذنب) " Sense of Guilt " وإما أن يقول له: احترس من أن تقسو على نفسك، لئلا تقع في الكآبة Depression - والشيطان ليس مخلصاً في نصائحه، لأنه يريد أن يبعد الانسان عن تبكيته لنفسه ليصلحها...

• على الانسان أن يحترس من أن يلتمس لنفسه الأعذار، كما تتغى أخطاؤها بالتبريرات! - النعمة قد تعمل في الانسان كى يدرك أخطاءه، كما يتحول إلى مشاعر التوبة. ولكن الشيطان - إنه يريد أن يبعده عن تكبى النفس والتوبة - يقدم له أعذاراً وتبريرات تغى على الأخطاء! فليحترس كل أحد من تقديم مثل هذه الأعذار والتبريرات، لأنها لون زائف من الإشفاق على النفس، بالدفاع عنها، ومحاولة تخفيف الذنب الذى اقترفته، ليعبدها عن التوبة!

• وربما يعتذر الإنسان عن أخطائه بسبب المعطلات الخارجية. هذه التى تعوق طريق الفضيلة، بينما كان عليه أن يجاهد لكي ينتصر على تلك المعوقات، فيغلبها دون أن تغلبه وتمنعه..

هوذا أبونا نوح البار، كان يعيش في جو في منتهى الفساد، وسط جيل شرير استحق أن يفرقه الله بالطوفان. ومع ذلك فإنه عاش في بره، وحفظ نفسه في الإيمان هو وأسرته. ولم يتأثر بالوسط المحيط... كذلك يوسف الصديق كانت الخطية تضغط عليه من زوجة سيده كل يوم. ومع ذلك رفض كل ذلك الضغط والالاحاح، ولم يخطئ. وتحمل ما لحقه من سجن وظلم وعار، لينتصر على الخطية.

• فلا يلتمس أحد العذر، بأنه كان ضعيفاً، والخطية أقوى منه! - الضعيف عليه أن يجاهد لكي يغلب وكل إغراءات الخطية، لكي يكون غالباً لا منهزماً أمامها، عالماً أن النعمة سوف تسنده في جهاده، وواضعاً أمامه أن ملكوت الله لا يعطى الا للغالبين... ولا يقول إن الوصية كانت صعبة، لم أستطع تنفيذها.. إن أبانا إبراهيم، أب الآباء والأنبياء، استطاع تنفيذ وصية في منتهى الصعوبة، فأخذ ابنه الوحيد الذى يحبه ليقدمه ذبيحة لله...

إن الاعتذار بالضعف، ما هو الا تدليل للنفس!

وأمثال هذه الأعذار مجرد حيل للتخلص من تنفيذ وصايا الله. وهى غير مقبولة أمامه. مثال ذلك الذى يعتذر عن الصوم لضعف صحته. وكذلك الذى لا يدفع من ماله، ما هو حق الله عليه، معتذراً بالظروف الأقتصادية، وبنفس السبب يعتذر من لا يفى بنذره...

في النهاية

هناك فضيلة تلزم لكل إنسان، آياً كانت درجته، وبدونها ما أسهل أن يضل وأن ينحرف هذه الفضيلة هي محاسبة النفس. **أليس من العار أن نجتهد كثيراً في محاسبة غيرنا من الناس، بينما أنفسنا لا نحاسبها!!**

نفترض مثاليات عالية نضعها أمام الآخرين، وإن تخلفوا عنها ولو قليلاً، ننصب لهم الموازين، ونكيل لهم الاتهامات، ونحاسبهم حساباً عسيراً، كأننا مسؤولون عن كل أعمالهم.. أما أنفسنا، فنادرًا ما نضعها تحت الحساب.

بينما في حقيقة الأمر نحن أقدر على محاسبة أنفسنا لا غيرنا.. أنفسنا معنا في كل حين، نعرف جميع خباياها، وجميع نواياها، وجميع ظروفها وأحوالها، ونعرف كل أعمالها وأفكارها، لذلك نحن نقدر على محاسبتها، ونكون عادلين في حسابنا، لأنه من معرفة يقينية أما غيرنا، فلا نعرف دواخله، ولا نعرف ظروفه وقد نظلّمه في حكمنا. وما أصدق قول الكتاب: "لا يعرف الإنسان إلا روح الإنسان الساكن فيه".. فليتنا نحاسب أنفسنا لا غيرنا..

ليتنا نحاسب أنفسنا بدلاً من أن نحاسبنا الناس. ما أجمل قول القديس مقاريوس الكبير: (احكم يا أخى على نفسك، قبل أن يحكموا عليك).. وبقيناً أننا لو حاسبنا أنفسنا، وعرفنا أخطاءنا، سوف لا نتضايق من محاسبة الناس لنا، وسوف لا نغضب منهم، بل نقول - ولو في داخلنا - "نحن بعدل جوزينا"..

ومحاسبة النفس تقود الإنسان إلى الاتضاع، وتبعد عنه الغرور والكبرياء.. إنما يتعجرف الإنسان الذي لا يدري حقيقة ذاته، ولا يعرف نقائصه وعيوبه.. أما الذي يحاسب نفسه، وتكشف أمامه خطايا وسقطاته وضعفاته، حينئذ يدرك أنه أقل بكثير مما كان يظن في نفسه، وتتضع نفسه من الداخل وان حاولت أن ترتفع يذكرها بما اكتشفه فيها من عيوب..

بل ليتنا نحاسب أنفسنا، قبل أن يحاسبنا الله في اليوم الأخير. إن محاسبتنا لأنفسنا، تقودنا إلى التوبة، إذ ندرك واقع سقطاتنا فنتوب عنها ونتركها، والتوبة تمحو الخطايا، وتستمطر مراحم الله، وتوقفنا بلا دينونة في اليوم الأخير..

Self judgment